الدرس الحادي والثلاثون

بسم الله الرحمـن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد ..

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الله تعالى قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مِمَّا افترضته، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطشُ بها، ورِجلَه التي يَمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه " رواه البخاري

الشرح..

هذا حديثٌ قدسي عظيم في بيان أولياء الله جل وعلا المقربين عنده ، وبيان ما أعده لهم جل وعلا من الثواب العظيم والنزل الكريم ، وبيان أنه جل وعلا آذن بالحرب من آذى أولياءَه ؛ وهذا فيه بيان لعظيم مكانة أولياء الله عند الله جل وعلا ؛ وفي هذا تنبيه إلى أهمية تولي الأولياء وحبهم ، وعدم معاداتهم أو أذيتهم بأي شيءٍ من الأذى لعظيم مكانتهم عند الله جل وعلا ، وفيه بيان حقيقة الولي ومن هم أولياء الله تبارك وتعالى حقاً وصدقاً ، وفيه بيان أن أولياء الله تبارك وتعالى على رتبتين وعلى درجتين جاء بيانُهما في هذا الحديث العظيم القدسي المبارك ، إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة التي نقف عليها من خلال هذا الحديث .

قال " من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " : أي أعلمته بأنني مُحاربٌ له ، ومن آذنه الله بالحرب فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، كما أن من آذنه الله بالنصر فقد فاز في الدنيا

والآخرة ، والله جل وعلا ينصر أنبياءه وأولياءه ، ويؤيدهم بحفظه وتأييده ، ويكلؤهم سبحانه وتعالى بعونه وتوفيقه ؛ فهم في حفظ الله جل وعلا .

ومعاداة الولي تكون ببغضه ، وأن يكون القلب منطوياً على كراهته وعدم محبته وإرادة الإيذاء له وإلحاق شيء من الضرر به ، وقد يصحب هذه العداوة أذىً وعدوان وتسلط وبهتان ، فتكون ظلمات بعضها فوق بعض .

" من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " بين جل وعلا في هذه الجملة فضل الأولياء وعظيم مكانتهم عند الله تبارك وتعالى ،

ثم بعد ذلك بيَّن من هم أولياء الله ؛ فقال :

قال " وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه " : وهذا فيه بيان أن أولياء الله تعالى على درجتين :

الدرجة الأولى : مُبيَّنة في قوله " وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضته عليه " فهذه الدرجة الأولى ؛ وهي التقرب إلى الله جل وعلا بالفرائض .

الدرجة الثانية : التقرب إلى الله بالنوافل وذلك في قوله " ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل " أي بعد عنايته بالفرائض والمحافظة عليها، وهذه الدرجة أعلى من الدرجة الأولى لأنه اجتمع فيها ما في الدرجة الأولى وزاد العناية بالنوافل والرغائب والمستحبات ، والبعد عن دقائق المكروهات .

ولهذا أولياء الله على درجتين ، وكلٌ من الدرجتين مبنيٌ على التقرب إلى الله جل وعلا بما يحب ؛ فهذه حقيقة الولاية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما يحب ، وأعظم شيء يتقرب به العبد إلى الله جل وعلا الفرائضُ التي افترضها وأوجبها عليهم ، ثم بعد ذلك يحب جل وعلا التقرب إليه بالنوافل .

وبهذا البيان البيِّن في الحديث يسقط أدعياء الولاية ، وهم كثر في قديم الزمان وحديثه ، اليهود الذين هم أشد الناس كفراً وظلماً وطغياناً يقولون عن أنفسهم {نحن أبناءُ الله وأحباؤه} هذا ادعاء أنهم أولياء الله لكنهم من أبعد الناس عن التقرب إلى الله ومن أكثر الأمم والخلائق جفاءً وتقصيراً وبعداً عن طاعة الله ؛ ومع ذلك يقولون {نحن أبناءُ الله وأحباؤه } ويقولون{لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ..} وهذا تحقيق لقول النبي صلى الله عليه وسلم "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً

شبراً ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" قالوا اليهود والنصارى؟ قال "فمن"؛ أي من القوم غير هؤلاء .

أيضاً وُجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من يدعي لنفسه الولاية وهو من أبعد الناس عن التقرب إلى الله ومن أكثر الناس إضاعة للفرائض ودخولاً في الآثام والحرام ، بل إن الأمر بلغ ببعض هؤلاء الزائغين الضلال أن ادعى أن تركه للفرائض وفعله للمحرمات من خصائص ولايته ومن الأمور التي هي ثمرة عظيم مكانته عند الله بزعمه وادعائه ؛ ولهذا لا يتحاشى بعضُ هؤلاء الضُلّال أن يقول عن نفسه أو عن شيخه أن التكاليف سقطت عنه ليس مأموراً بفعل فرض ولا منهياً عن فعل محرم ، ويعدون هذه سمة للولاية ومن خصائص أولياء الله؛ وهذا من أعظم البهتان والافتراء والكذب على الله وعلى دينه وعلى شرعه وعلى مقام الولاية ؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم {ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين ءامنوا وكانوا يتقون} فنعتهم الله بنعتين : الإيمان والتقوى

واجتماع الإيمان والتقوى في هذا السياق وفي نظائره من سياقات القرآن والسنة هو جمعٌ بين فعل الأوامر وترك النواهي ؛ لأن الإيمان إذا جُمع مع التقوى أصبح الإيمان في جانب الاعتقاد وفعل المأمور ، والتقوى في جانب ترك الحرام والبعد عن المحظور ؛ فدل قوله الله جل وعلا { الذين ءامنوا وكانوا يتقون} على أن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ؛ أهل الإيمان به وبكل ما أمر جل وعلا بالإيمان به ؛ بفعل الفرائض وترك المحرمات .. ؛فهؤلاء هم أولياء الله .

أما من يدعي الولاية لنفسه مع إضاعة للفرائض وارتكاب للمحرمات ؛ فهو ليس من أولياء الله ، وليس هذا الذي يفعله مما أمره الله به ؛ بل هو مما يأمر به الشيطان ، ومن كان كذلك لا يكون ولياً لله بل هو ولياً للشيطان ، ولا يكون من حزب الله وإنما هو من حزب الشيطان ؛ لأن ولي الله هو الذي يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما شرع ، يتقرب إلى الله بالإيمان به وبتقواه سبحانه وتعالى ، يتقرب إليه بفعل الفرائض والواجبات وترك المحرمات ، وإن زاد في مقام الولاية اعتنى بالرغائب والمستحبات ، أما الادعاء فهو يسير فما أيسر أن يدعي مدعٍ مثل هذا أو دونه أو أعظم منه ، والدعاوى إذا لم يقم عليها بينات أهلها أدعياء ؛ وقد مر معنا في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام قوله "البينة على المدعي" ؛ فمن ادعى دعوى فعليه أن يأتي بالبينة عليه، ومن ادعى لنفسه أنه ولي أو أنه بلغ رتبة الولاية أو أنا من الخاصة .. ؛ فهذه

دعوى تحتاج إلى بينة ، والبينة مبينة في القرءان ؛ قال تعالى{قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم } البينة أن يكون لازماً هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، أما أن يأتي بدجل وخرافات وشعوذات وأنواع من الضلالات ؛ ثم يزعم لنفسه أنه من أولياء الله وهو مخالف لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنى له أن يكون لله ولياً .

وهذا بابٌ يحتاج فيه المسلم الناصح أن يقف على جادة الصواب وطريق الحق حتى لا يؤخذ به إلى أودية الضلال وأبواب الباطل باسم الولاية المدعاة من أقوام ، وكم أُضِل أقوام عن جادة الصواب باسم الولاية ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام "إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين" وإن القلب المؤمن الصادق في إيمانه مع ربه تبارك وتعالى لَيألم أشد الألم ويأسف أشد الأسف على ضياعٍ يقع في مناطق عديدة باسم الولاية وأنواع من الأباطيل ترتكب باسم الولاية يجمعها إضاعة الفرائض وفعل المحرمات ، وكلها تُرتكب باسم الولاية المزعومة المدعاة .

والمقام لا يحتمل تفصيلاً طويلاً ؛ لكني أضرب بعض الأمثلة ليتضح الأمر :

في باب الإيمان والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما شرع وفعل ما أمر جل وعلا يتخلى هؤلاء عن الفرائض وواجبات الدين باسم الولاية ؛ ولهذا يبقى من يُدَّعى أنه ولي حين تُقام الصلاة المفروضة في مكانه لا يصلي ! وربما في المسجد تُقام الجماعة ويبقى هو في سارية المسجد .. ، وإذا سُئل عنه قيل هذا من أولياء الله سقطت عنه التكاليف والفرائض !!

ولا يؤدون الحج ؛ بل يزعمون أن مقام الولي أرفع من أن يذهب إلى البيت العتيق ليطوف بالبيت العتيق ؛ فيقولون أن شأنه أعظم !!

أعظم مِن مَن ! قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وأنبياءُ الله جل وعلا ورسله يتتابعون على بيت الله العتيق يطوفون به ، ونبينا عليه الصلاة والسلام طاف بالبيت مرات وكرات وهو سيد الأولياء والمتقين وخير ولد آدم أجمعين صلوات الله وسلامه عليه يطوف بالبيت خاضعاً دليلاً منكسراً معظماً لربه سبحانه وتعالى .

ثم هؤلاء يقولون : الولي مقامه أعلى من ذلك ؛ ولهذا بعضهم لم يتورع من التصريح بأن مقام الولي أرفع من مقام النبي ؛ يقولون :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

ويقولون أن الولي مقامه أرفع بأن يطوف بالبيت ؛ بل البيت يطوف بالولي !! ولهذا ينصون على هذا في كتبهم ويقررونه في مجالسهم ؛ فيقولون : الكعبة تذهب وتطوف بالأولياء ، وفي أحد كتب الفقه المشهورة في أبواب الصلاة ؛ عُقدت مسألة مبنية على هذه الخرافة الباطلة :

قال صاحب الكتاب :

مسألة : إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس؟

قال : اختلفوا في المسألة على قولين :

القول الأول : يصلون إلى مكان الكعبة الأصلي باعتبار أن الناس لا يدروا أين ذهبت الكعبة ، وإذا كُلفوا بالصلاة إلى أين ذهبت الكعبة ؛ هذا تكليف بما لا يُطاق والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

القول الثاني : يلزمهم التحري ؛ فلا بد أن يبحثوا عنها ـ في الهند أو في أفريقيا أو في !!! فيتحرون ويصلون إلى جهتها ، ويحتاج إلى أن يُنبه الناس بعد الأذان فيُقال للناس أن الكعبة في جهة أفريقيا أو أنها في جهة الهند ..!

هذا العبث بالدين والفرائض وبواجبات الله تبارك وتعالى ؛ تُرتكب باسم الولاية .

ولاحظ قوله في الحديث القدسي "ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه" فهذه الفرائض جعلها هؤلاء موضع عبث بالدين ، لا يمكن أن يكون صفة لولي أبداً ؛ فالولي من أبعد وأنزه الناس عن العبث بالدين ، بل هو من أشد الناس حفاظاً على واجبات الإسلام ورعايةً لها .

وهذا في مقام فعل الفرائض ، وإذا نظرت في المقام الآخر ـ مقام اجتناب المحرمات . فالولي عندهم ساقطة عنه التكاليف وليس منهياً عن المحرمات ؛ ولهذا لا يتورع من يدعي الولاية على طريقة هؤلاء أن يرتكب الفواحش وأن يمارس الحرام وأن يشرب الحرام ؛ بل بلغ الحال ببعض هؤلاء أن يرتكب المحرمات باسم الولاية وباسم الكرامة وباسم البركة ؛ ومما اطلعنا عليه في كتب هؤلاء ونقله أيضاً المهتدون من هؤلاء أن بعض هؤلاء يبلغ به الحال أن يذهب المريد بزوجته ليلة الزواج قبل أن يخلو بزوجته ؛ يذهب بها إلى شيخه ويطلب من شيخه أن يخلو بها وأن يفتض بكارتها للبركة لأنه ولي وإذا حصل منه هذا الأمر بورك له في زوجته وفي ذريته ؛ ثم يخلو الولي المزعوم بها ويفتض بكارتها ثم تخرج من عنده وقد بوركت بزعم هؤلاء ،

ثم شكراً للولي بهذا الجميل ؛ ينطرح المريد عند الشيخ الولي المزعوم ويقبل قدميه ـ يشكره على هذا الجميل والإحسان ـ !!

فهذا كله عبث على دين الله تبارك وتعالى باسم الولاية المزعومة ، والولاية التي هي قربة إلى الله سبحانه وتعالى شيءٌ ، وما يمارسه هؤلاء كله باطل وضلال ما أنزل الله تبارك وتعالى به من سلطان ، لكنه يمارس بهذا الشكل باسم الولاية .

يقول الله جل وعلا " وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه " :

يعني ليس شيء أحب إلى الله ويُقرب إليه من الفرائض و قوله " افترضته " يتناول أمرين :

• يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ؛ فالله عز وجل افترض على عباده فعل واجبات الدين ، وافترض عليهم أيضاً ترك المحرمات ؛ ولهذا مر معنا في حديث سابق "وأحللت الحلال وحرمت الحرام" ؛ فهذه الدرجة الأولى .. فعل الفرائض ؛ فعل الواجبات وترك المحرمات ، ومن فعل الواجبات وترك المحرمات كان من أولياء الله وكان يوم القيامة ممن يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وهو المقتصد في قوله تعالى { فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد} والمقتصد هو الذي يفعل الواجب ويترك المحرم ، هو الذي اقتصر في طاعته لله وتقربه إليه سبحانه على فعل واجبات الدين وترك المحرمات ؛ فهذا ولي من أولياء الله ، ويوم القيامة يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب .

وليس من شرط الولي أن تحصل له الكرامة التي هي الأمور الخارقة للعادة ؛ بل أعظم كرامة حصول الاستقامة ، وهي أعظم من الخوارق ، أعظم كرامة أن يستقيم على دين الله وأن يحافظ على الفرائض وواجبات الدين وأن يبتعد عن المحرمات ، ونقرأ هذا في قوله تعالى { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } .

وأيضاً حصول الأمر الخارق للعادة ليس دليلاً على الولاية ، وعدم وجود الأمر الخارق للعادة ليس دليلاً على انتفاء الولاية

هذه الدرجة الأولى وهي التقرب إلى الله بالفرائض وترك المحرمات

•الدرجة الثانية ـ وهي أعلى منها ـ درجة التقرب إلى الله بفعل النوافل والمستحبات والبعد عن دقائق المكروهات والأمور التي نُهيَ عنها في الشرع نهيَ تنزيه لا نهيَ تحريم ، وتحقيق مرتبة كمال الورع ؛ فهذه رتبةٌ أعلى من الرتبة الأولى ؛ لأن صاحب هذه الرتبة فعل الفرائض وزاد

على ذلك بالعناية بالنوافل والمستحبات والبعد عن المكروهات ؛ فكانت درجته أعلى ومنزلته أرفع .

" ولايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه " المراد بذلك أي بعد حفظه ومحافظته على الفرائض ، وليس المراد أن يحافظ على النوافل على حساب الفرائض ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم " من فعل أو اعتنى بالنفل على حساب الفرض فهو مغرور، ومن ترك النفل رعايةً وعنايةً بالفرض فهو معذور " أو كلاماً نحو هذا نقله الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى عن بعض الأكابر . ولهذا النوافل لا يفعلها الإنسان على حساب الفرائض ، وكم يغلط كثير من الناس في هذا الباب ، فمثلاً : إذا كان قيامك بالليل على حساب صلاة الفجر فلا يجوز لك هذا القيام ، ولا يجوز لك أن تجتهد بالليل على طلب العلم وحفظ القرآن ولا في مجلس علم إذا كنت تعلم من ذلك أنه سيكون على حساب فريضة الفجر ، والذي يعتني بالنوافل على حساب الفرائض هذا كما قال بعض أهل العلم مغرور ـ نوع من الغرور ـ لكن إذا حافظت على الفرائض ولو فاتك شيءٌ من النوافل ولو كثير من النوافل في سبيل حفظ الفرائض ؛ أنت معذور لأن الأصل الفرائض وهي التي طُلبت منك طلباً مؤكداً وأوجبها الله سبحانه وتعالى عليك وكتبها عليك .

قال " ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه " : قوله " حتى أحبه " هذا فيه إثبات المحبة لله جل وعلا وأنه يحب ، وفيه بيان الأسباب التي تُنال بها محبة الله ، وأن محبة الله إنما تُنال بفعل الفرائض والعناية بالرغائب والمستحبات ، والذي يفعل الفرض ويترك المحرم هذا ولي من أولياء الله يحبه الله ؛ فيكون قوله "ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه " فيه التنبيه على التفاضل بين العباد في نيل محبة الله جل وعلا ، وأن العبد كلما عظمت عنايته بالطاعات وزادت رعايته للرغائب والمستحبات زاد حظه ونصيبه من نيل محبة الله له جل وعلا ؛ ولهذا فإن قوله "لايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه" فيه التنبيه على المزيد من هذا الباب ،وأن العبد كلما زاد في هذا الباب عنايةً ورعاية ومحافظة زاد نصيبه وحظه من ولاية الله له ومن محبته له سبحانه وتعالى .

ثم ذكر الثمرة العظيمة التي ينالها ولي الله سبحانه وتعالى ؛ قال :

"فإذا أحببته سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها" : ولا يغيب عن بالك هنا وأنت تقرأ هذه الثمار العظيمة أن تذكر دلائل الحديث على وجود

متقرِّب (وهو العبد) ومتقرَّب إليه (وهو الرب سبحانه وتعالى) ،وكن على ذكر من قوله "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب" ؛ فذكر عبداً ورباً ، ومتقرِّباً ومتقرَّباً إليه

وقال أيضاً " ما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضته عليه " فالرب هو الذي فرض الشرائع ، والعباد هم الذين كُلِّفوا بفعلها ؛ فذكر متقرِّباً ومتقرَّباً إليه ، ذكر في تمام الحديث داعياً ومدعواً ومستعيذاً ومستعاذاً به ؛ فهذه عندما تكون على بال الإنسان وهو يقرأ الحديث لايقع في زلل بعض الطرقية والضلال في فهم هذا الحديث .

قال " فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها " : والربُّ ربٌّ والعبدُ عبدٌ ؛ فما معنى قوله "كنت سمعه .. وكنت بصره" ؟ أي أن الله سبحانه وتعالى يؤيده ويسدده ويحفظه في سمعه وفي بصره وفي يده وفي قدمه ؛ فبي ـ فبالله ـ يسمع ، وبي يبصر ، وبي يمشي وبي يبطش ،

بي : أي بتأييدي وبحفظي وبتوفيقي .

فيكون سمعه وبصره ويده وقدمه كله محفوظاً بحفظ الله تبارك وتعالى .

بعض الضلال والجهال ومن لا بصيرة له في معاني كلام الله وكلام رسوله ؛ يقول بعضهم عند شرح الحديث : كنت يده أي تصبح يدُه يدُ الله ، ويصبح سمعُه سمعُ الله .. ؛ فيصبح بهذه العقيدة إلى عقيدة حلولية كفرية باطلة جائرة ، تُثمر عدم تفريق بين عبد ورب ؛ حتى قال قائل هؤلاء :

الربُّ عبدٌ والعبدُ ربٌّ ألا ليت شعري من المكلَّف

إن قلت ربٌّ فذاك عبدٌ أو قلت عبدٌ أنَّى يكلّف

اختلطت عليهم الأمور وهذا مبني على أحد أمرين أو كليهما : سوء العلم وسوء القصد ، واجتماع هذين الأمرين هلكتُه والعياذ بالله في الدنيا والآخرة ؛فمعنى قوله "كنت سمعه .. كنت بصره ..فبي يسمع .. فبي يبصر" ؛ واضح لدى أهل البصيرة بدين الله ؛ أي الله سبحانه وتعالى يؤيده في سمعه وفي بصره ، والحديث ذكر فيه رب ، ومربوب ، ومتقرِّب ، ومتقرَّب إليه ، وداعي ومدعو ، ومستعاذ ، ومستعاذ به ..

قال "ولئن سألني لأعطينه" : وفي هذا أن الله سبحانه وتعالى يجيب دعوته ، ولايرد الله تبارك وتعالى دعوته {إن ربي لسميع الدعاء}، {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم}.

" ولئن استعاذني لأعيذنه " ، وأيضاً ضُبطت "ولئن استعاذ بي لأعيذنه " وكلاهما صحيح ، والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله جل وعلا في دفع المكروه ، وفي الجمع بين قوله "ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه " : أي إن طلب حصول خيرٍ حققه الله له ، وإن طلب دفع ضر حققه الله تبارك وتعالى له .

هذا حديث قدسي عظيم ، بيَّن فيه اللهُ تبارك وتعالى مكانة الأولياء عنده ، وبيَّن فيه من هم الأولياء وأنهم على رتبتين ، ثم ذكر في تمام الحديث ثواب الأولياء عند الله وأن الله تكفَّل بحفظهم وتأييدهم وإجابة دعائهم وإعطائهم سُؤلَهم .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً: قوله: " من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب " هذا الحديث من الأحاديث القدسية التي يرويها الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربِّه، وقد أفرد الشوكاني رحمه الله شرحه في كتاب سمَّاه " قطر الوَلِيّ بشرح حديث الوليّ " ، وأولياء الله عزَّ وجلَّ هم المؤمنون المتَّقون، كما قال تعالى: { أَلَا إِن أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يحزنون الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } ، ومعنى " آذنتُه بالحرب " أعلمته أنَّني محاربٌ له، وهو يدلُّ على خطورة معاداة أولياء الله، وأنَّه من الكبائر.

ثانياً : قوله: " وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مِمَّا افترضت عليه " في هذه الجملة وما بعدها بيان أنَّ ولاية الله إنَّما تحصل بالتقرُّب إليه بأداء الفرائض، والإتيان مع ذلك بالنوافل، وهو يدلُّ على أنَّ التقرُّبَ بأداء الفرائض أحبُّ إلى الله من النوافل؛ لأنَّ في ذلك فعل ما أوجب الله وترك ما حرَّم الله، والآتي بالواجبات التارك للمحرَّمات هو المقتصد، ومَن أتى بها وأتى بالنوافل معها فهو السابق بالخيرات] .

الشرح.

قوله سبحانه في هذا الحديث القدسي "وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه" هذه الجملة فيها بيان حقيقة الولاية ، وأن الولاية لا تكون إلا بالتقرب إلى الله سبحانه

وتعالى ، وأفاد الحديث أن الولاية على درجتين : درجة المقتصدين ؛ وهم من يقتصرون في التقرب إلى الله على فعل الفرائض ، مثل الرجل الأعرابي الذي ذكر له النبي صلى الله عليه وسلم الفرائض فقال لا أزيد على هذا ولا أنقص ؛ قال دخل الجنة إن صدق

والفرائض تتناول فعل الواجب وترك المحرم فمن فعل واجبات الدين وترك المحرمات ولم ينشط لفعل المستحبات ؛ فهذا من أولياء الله يدخل الجنة يوم القيامة دخولاً أولياً بدون حساب .

والرتبة الثانية للولاية : هي التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالنوافل بعد الفرائض والمحافظة عليها ؛ وهذه رتبة أعلى وهي رتبة السابقين بالخيرات ورتبة المقربين .

والمقتصد الذي فعل الواجب وترك المحرم ، والسابق بالخيرات الذي زاد على ذلك فعل الرغائب وترك المكروهات ؛ كلٌ منهما يدخل الجنة يوم القيامة بدون حساب ولا عذاب ، كما قرر ذلك شيخ الإسلام في كتاب الإيمان وغيرُه من أهل العلم .

بخلاف الظالم لنفسه . وهو باقٍ على أصل الإيمان . فإنه عرضة للحساب وعرضة للعذاب ، وإذا دخل النار لا يدخلها للتأبيد والتخليد؛ وإنما يدخلها للتنقية والتطهير ويشمله الحديث "أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان" .

[ثالثاً : قوله: " ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه " إلخ، النوافل هي الإتيان بالأعمال الصالحة زيادة على الفرائض، وفعلها مع الاستمرار عليها يجلب محبَّة الله عزَّ وجلَّ، وإذا حصلت له المحبَّة ظفر بتسديد الله في تصرفاته، فلا يسمع إلاَّ ما هو حق، ولا يرى إلاَّ ما هو حق، ولا ينال إلاَّ ما هو حق، ولا يَمشي إلاَّ إلى ما هو حق، وأكرمه الله بإجابة دعوته إذا دعاه، وإعاذته مِمَّا استعاذه منه] .

الشرح..

هذا نضير معنى مرَّ معنا في حديث سابق يؤكد هذا المعنى ؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم " احفظ الله يحفظك" ومعنى احفظ الله أي بفعل ما أمر ، والتقرب إليه سبحانه بما شرع ، وبالبعد عما نهى تبارك وتعالى عنه ؛ والثمرة : يحفظك .

وهنا دعا إلى فعل الأوامر والفرائض ، ثم بعده المستحب ، وذكر الثمرة وهي حفظ الله له في سمعه وفي بصره وفي يده وفي قدمه ؛ فلا يرى إلا حقاً ،ولا يسمع إلا حقاً ، ولا يمشي إلا إلى حقٍ ؛ لأنه محفوظ بحفظ الله ، تولى الله سبحانه وتعالى توفيقه وتسديده وحفظه .

[رابعاً : مِمَّا يُستفاد من الحديث:

أولاً : بيان فضل أولياء الله، وشدَّة خطر معاداتهم.

ثانياً : أنَّ ولايةَ الله عزَّ وجلَّ تحصل بأداء الفرائض وفعل النوافل.

ثالثاً : أنَّ أحبَّ ما يُتقرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ به أداء الفرائض.

رابعاً : إثبات صفة المحبَّة لله عزَّ وجلَّ.

خامساً : تفاوت الأعمال في محبَّة الله إيَّاها.

سادساً : أنَّ فعل النوافل بعد أداء الفرائض يجلب محبَّة الله عزَّ وجلَّ.

سابعاً : أنَّ من ظفر بمحبَّة الله عزَّ وجلَّ سدَّده في سمعه وبصره وبطشه ومشيه.

ثامناً : أنَّ محبَّة الله عزَّ وجلَّ تجلب للعبد إجابة دعائه وإعاذته مِمَّا يخاف.

تاسعاً : أنَّ ثوابَ الله عزَّ وجلَّ للعبد يكون بإجابة مطلوبه والسلامة من مرهوبه.

الشرح..

أيضاً مما يلتحق بما سبق وبما جاء في آخر الحديث وهو قوله ﷺ"ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه "ـ أي الولي . فهنا مما ينبغي أن يلاحظ أن الولي الصادق الذي أكرمه الله بالمحافظة على الفرائض والواجبات لايمكن أن يقول للناس أنا من أولياء الله وأنا من المقربين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى}، ويقول جل وعلا عن المؤمنين الكُمَّل {والذين يُؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون } جاء في المسند أن عائشة رضي الله عنها قالت "سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية قلت أهو الرجل يزني ويسرق ويقتل ويخاف أن يُعذَّب ؟ قال : "لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يُقبل" ، عبد الله بن أبي مليكة رحمه الله يقول "أدركت أكثر من ثلاثين صحابياً كلُّهم يخاف النفاق على نفسه " ؛ فالولي لا يدَّعي لنفسه ذلك ، ولا يصف نفسه بأنه من الأولياء بل يتواضع ويذل لله وينكسر .

كتب أحد الأخوة عن رجل في بلده يقول : كتب لنا في ورقة يقول لأهل البلد أي أحد عنده أمر يريد أن يستخير الله يأتي إليّ ويخبرني أنا أستخير عنه ؛ ما مقصوده بقوله " أنا أستخير نيابة عنه ؟ مقصوده أن لي شأن ومكانة عند الله وأنتم لكم ذنوب ... بينما في الحديث يقول "كان يعلّمنا رسول الله ﷺ الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن " يعلمهم حتى ماذا ؟ حتى يستخيروا هم ؛ كل يستخير لنفسه وهو عليه الصلاة والسلام سيّد المرسلين ما قال لهم إذا احتجتوا شيء تعالوا أنا أستخير لكم ....

فهذا الذي يفعله هؤلاء الذين يدَّعون الولاية لأنفسهم ؛ هذا كله نوعٌ من الدجل يُقصد منه أمرين :

الأول : التعالي والترفع على الناس بادعاء المكانة والمنزلة .. إلى غير ذلك .

والثاني : أكل أموال الناس بالباطل .

وعندما يقرأ المسلم هذا الحديث القدسي ؛ يجد أن باب الولاية مفتوح لكل أحد ؛ وهذا طريق الولاية ، وليس طريق الولاية مرسوماً بطريق ، وليس في طريق الولاية ذل وانكسار لشيخ ، وليس في نيل الولاية لعقُ يدٍ وتقبيلُ قدمٍ ونحو ذلك من الأعمال التي تفعل عند الطرقية ويعدونها خطوات أولية لا بد منها في طريق الولاية ، وليس من الولاية التقرب إلى الله بواسطة الشيخ أو نحو ذلك من الطقوس والأضاليل والأباطيل التي يروجها أهل الطرق الباطلة والحديث حديثٌ قدسي وهو في صحيح البخاري والكلام كلام رب العالمين وخالق الخلق أجمعين سبحانه وتعالى ؛ فباب الولاية واضح، وطريقُها بيِّن ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهمّ صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبيّنا محمد و آله وصحبه

..*